صوت العراق المسلم

العدد : ١٩٢ الموافق في ربيع أول ١٤١٨ هجري ١٩٩٧/٨ ميلادي

عنوان المقال : الشيخوخة والعجز وتعامل الناس معهما في ألمانيا	بقلم : أسرة التحرير

الشباب قوة والشيخوخة ضعف... وقد يكون رصيد التجارب التي مرّ بها الكبار موجِّهاً مفيداً لشباب اليوم ، حيث يمكنهم أن يستفيدوا من خبرات من سبقهم في معاركة الحياة... ولا شك أن لكلّ مسنّ تجربة ومعاناة ما ، مرَّ بها ، وشيئاً بذله في مجتمعه أو لمجتمعه. أفلا يستحق بذلك احتراماً وتقديراً ، أو رعاية وعطفاً...

الاحترام والتقدير ، والرعاية والعطف ، والاعتراف للمسنّ بحقوق عمره ، إنما هي مبادئ خلقية وقيم سلوكية ، وقواعد تعاملية ، يفقدها الغرب يوماً بعد يوم...

إننا نرى في بلاد الغرب في عصرنا نمو ظاهرة « الفردية والذاتية » ، بمعنى أن يسأل كل فرد عن حريته ومصلحته أولاً وقبل كلّ شيء ، ونرى في ذات الوقت استخفافاً بالقيم والمبادئ والاعتبارات الإنسانية على الصعيد الخلقي والسلوكي : الفرديّ والجماعي ، ممّا يجعلنا نتساءل عن مدى ما بقي لتعبير « الإنسانية » من مضمون !

وقد مرّت بي صباح هذا اليوم الحادثة التالية :

دخل علينا أستاذ مسنّ من أساتذة علم الاجتماع قاعة المحاضرات في قسم الدراسات الإنسانية من جامعة البلدة التي أسكن فيها ، وافتتح محاضرته المتعلقة بواقع المسنين في ألمانيا بقصة جرت في مدينة من مدن ألمانيا :

تقدم عددٌ كبير من سكان هذه المدينة باعتراض على بناء مسكن للعجزة في وسط المدينة

المحكمة اعترفت للمعترضين بحقهم في ألا يكدروا أو يزعجوا أنفسهم بالنظر إلى شيوخ مسنين منهكين في وسط المدينة وإطار الحياة العام فيها ، فتم الحكم بنفي العجزة إلى خارج المدينة ، وبناء بيتهم الأخير في ناحية نائية قرب الغابة ، كي تقل فرص تواجدهم في الأسواق... وتمت رغبة الناس بأن يكون لهذا البيت أسوار !!

- لم أتمالك نفسي عندما سمعت هذه القصة أن أطرح في القاعة سؤالاً يعبر عن دهشتي واستيائي من تصرف هؤلاء :

- ألا يحسّ المطالبون بإبعاد المسنين من وسطهم بشفقة على هؤلاء ؟ ألا يضع الواحد من شباب اليوم الرجل المسنّ أو المرأة العجوز بمقام أمه وأبيه أو جدته وجده ؟ وإن لم يبق هناك إنسانية ،

ومشاركة وجدانية ، وشعور بالمسؤولية الاجتماعية ، أفلا تدعو الأنانية الفردية هؤلاء إلى التفكير بمصيرهم ، ومستقبلهم هم أنفسهم طالما أن حقيقة انتقال الإنسان من طور الطفولة إلى الشباب إلى الكهولة إلى الشيخوخة بديهية من البديهيات ومسلّمة من المسلّمات التي لا يشوبها أدنى شك أو أدنى ارتياب ، وطالما أن الشيخوخة تنتظرهم ، وأنهم سيبلغونها كما بلغها من قبلهم ؟

وكان جواب الأستاذ مؤكداً لمدى ضياع الأجيال الجديدة مع ما أضاعوا من مبادئ وقيم ، مبيناً أن الشعار الأول والأخير لشباب اليوم إنما يحمل عنوان اللذة والنشوة الآنية الحاضرة ، دون نظر إلى مستقبل ، أو تخطيط وتحضير لبعيد ، والناجح في نظرهم ومنطقهم ، هو الأقدر على اجترار اللذة والنشوة في ساعته ولحظته التي يعيش فيها ، ولا يرغب أو يحرص على التفكير بما يليها ، وإن كانت مجرد لحظة عابرة فانية...

وشاء الله عز وجل أن يكون أول مشهد أشهده مع زميلة لي بعد خروجنا من المحاضرة هو مشهد امرأة عجوز ، تخرج من مخزن للمشتريات تحمل أكياساً لا يخفى على أحد ثقلها على كاهلها الضعيف ، وما تستثيره حالها من عطف وإشفاق

تقدم منها شاب - كأنه مغربي - بأدب وهدوء. أشفق عليها ، فاستأذنها في مساعدتها لتصل بأحمالها إلى موقع الباص ؛ فإذا بالمرأة العجوز التي لم تتعود مثل هذه الشهامة والمساعدة من قبل ، تصرخ - وهي ترى يده تمتد إلى أكياسها - بفزع وعنف : النجدة ! النجدة ! يريد أن يسرقني ! أن يأخذ أغراضي !...

ولم يسكن روعها ، وتتكشف لها الحقيقة إلا بعد وقت...

وأترك للقراء التفكير والتعليق !!

ملاحظة : يفيد لفت النظر هنا إلى ضرورة عدم تعميم بعض الحوادث والمشاهدات والأحكام تعميماً مطلقاً ، والتذكير بأن المكان الأساسي لاحتضان المسنين والعجزة ما زال داخل إطار الأسرة ، كما تشير الدراسات والإحصائيات ، وأن المرأة الألمانية هي التي تقوم - في غالب الأحيان - بدور الخدمة والرعاية للمسنين من أسرتها وأسرة زوجها بينما يتنصل الرجل الألماني غالباً من حمل هذه المسؤولية إن لم تكن له زوجة تتكفل بها ! ولذلك فإن ظاهرة تفكك الأسرة المتزايدة في الغرب يشكل عاملاً مقلقاً فيما يتعلق بما قد يؤول إليه وضع المسنين والمحتاجين من الأقارب في المستقبل.

